نظرات وآراء في تحقيق التراث ونشره

الدكتور حسين علي محفوظ

تحقيق المخطوطات وكتابة التاريخ

امتلأت دور الكتب في أهمّ عواصم العالم، والمكتبات المركزية في أشهر الجامعات العربية والأجنبية، والخزائن العامة والخاصة في أكبر بلدان أوروبا وآسيا وأمريكا وأفريقية، وكذلك الجوامع والمجامع والمعاهد والمدارس والبيوت في المشرق والمغرب بألوف الألوف من المخطوطات العربية، استطاع بعض المحققين أن يقدرها بثلاثة ملايين مخطوط ـ عدا ما لم تبلغه أعين الباحثين ولم تنله أيدي المتتبعين في القرى والمدن الصغيرة، وعدا ما عند العلماء الأفاضل، والأشخاص المغمورين هنا وهناك وعدا ما يوجد في مخازن بياعي الكتب وبيوتات التجار. وعدا ما نهبه اللصوص، واعتدى عليه السراق واضاعه الجاهلون وعدا ما أتلفته الحوادث والآفات والمصائب والفتن والوقائع والنكبات، وعدا ما مزقه الجاهلون والمعتدون.

ظهرت الطباعة في أوروبا في القرن الخامس عشر ودخلت آسيا الصغرى أيام العثمانيين. ثم ظهرت في لبنان، وسورية، ومصر، والعراق، واليمن والحجاز بين 1580 و 1882 م وتنقلت في الهند والشرق فيما يقارب هذه التواريخ.

يخمن بعض الباحثين ما طبع من هذه الكمية العظيمة الضخمة من تراثنا العربي الأصيل ـ منذ ظهور الطباعة قبل حوالي ستة قرون ـ لا يزيد على واحد في المائة (1%).

وهذا معناه أن 99% من المخطوطات العربية لا يزال كنزاً مخفياً يحتاج إلى الكشف والتعريف والتحقيق. وإن الكثير من هذا الجزء الواحد المنشور يحتاج إلى التصحيح المجدد والنشر الجديد.

إن إعطاء أي حكم يتصل بالجوانب العلمية والفكرية ـ وهي من أهم منجزات الإنسان ـ لا يكون دقيقاً ولا شاملاً إلا إذا استقصينا التراث، ودرسنا المخطوطات، ومحصنا النتاج المدون الذي يعتبر من أهم الوثائق التي تنتظر الدارس المحقق والمؤرخ المجدد. وسوف تبقى أحكامنا جزئية مقصورة على معطيات جزء من مائة جزء من أجزاء التراث. ولا تمثل إلا القسم القليل المنشور المدروس منه، حتى يكمل احياء التراث كله.

والحق ـ أن عملية اعادة كتابة التاريخ الثقافي يتطلب تجنيد الدارسين والباحثين والمختصين لاحياء التراث بالتحقيق والنشر. وهذا يعني:

1 ـ جمع فهارس المخطوطات العربية الموجودة في العالم، وانشاء خزانة خاصة بالفهارس اقترحت تسميتها (مكتبة الفهارس).

ومهما يكن عدد المخطوطات العربية فإن الفهارس لا تمثل الا جزءاً صغيراً جداً منها. ويمكن ـ لتحقيق هذه الفكرة ـ الاستفادة من مجموعات الفهارس المحفوظة في دور الكتب والمكتبات الكبيرة في العالم.

واستنساخ كل ما فيها من فهارس وقوائم ولا سيما (كمبردج)

و (لندن) و (ليدن) و (أكسفورد) وغيرها . . . ففي مكتبة جامعة كمبردج، والمتحف البريطاني، وجامعة ليدن، أجنحة كبيرة خاصة بالفهارس.

2 ـ فهرسة المخطوطات العربية المنتشرة في آسيا وافريقية وأوروبا وأمريكا ولاسيما الاتحاد السوفيتي، وإرلندة، وإسبانية، والمانية، وايطالية وبريطانية، وبلجيكا، وبلغارية، والبرتغال، وبولونية، وتشيكوسلوفاكية، والدانمارك، وررومانية، والسويد، وسويسرة، وفرنسة، وفنلندة، ومالطة والمجر «هنغارية»، والنرويج، والنمسا، وهولندة، ويوغسلافية في أوروبا.

وأفغانستان، وايران، وباكستان، وتركية، والصين، والهند في آسية. والحبشة، والسنغال، وغانة، ونيجيرية، في إفريقية.

وآن آربو، وبليتمور، وبوسطن، وبرنستن، وديترويت، وشيكاغو، وكليفلند، وفيلادلفية، وكمبرج، ونياغارا، ونيويورك، وهرتفرد وواشنطن في أمريكا.

هذا فضلاً ـ عن ألوف المخطوطات في المكتبات العامة والخزائن الخاصة في الوطن العربي.

3 ـ تصوير المخطوطات، واستنساخها، وحفظها في (المكتبة العربية) وقد كنت اقترحت انشاء (المكتبة العربية) في العواصم العربية لجمع التراث مخطوطاً ومصوراً قبل سنين.

4 ـ تأليف الفهرس الموحد للمخطوطات العربية الذي كنت اقترحت تأليفه قبل برهة، ترتب فيه الكتب على العناوين والمواضيع، ويشار إلى كافة النسخ الموجودة من كل مخطوط في مكتبات العالم مرتبة على التواريخ والأزمنة والأهمية لكي يستفاد منها في عملية التحقيق والنشر.

5 ـ فهرست المطبوعات العربية منذ ظهور الطباعة حتى اليوم فقد طبعت ألوف الكتب العربية في أوروبا وآسيا وافريقيا وأمريكا لم يذكر منها في فهارس المطبوعات المتداولة إلا قليل. ولا يمثل (معجم المطبوعات العربية والمعربة) تأليف يوسف اليان سركيس، وكتاب (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع) للمستشرق فانديك، وموسوعة (خان بابا مشار) للمطبوعات والمؤلفين إلا جزءاً صغيراً من المطبوعات العربية.

وقد اطلعت على مئات الكتب والرسائل التي طبعت في تركية وايران والهند، وآسية الوسطى وأوروبا لا يدري بنشرها إلا عدد محدود من المحققين وبعضها لم يشر إليه باحث قط. وهي تضيف فصولاً مهمة إلى تاريخ التراث.

6 ـ فهرسة الكتب المحققة وتمحيصها وتقويمها وتقييمها. وهو أمر كنت نبهت عليه منذ زمن.

7 ـ اعادة نشر الكتب (غير المحققة) نشراً «علمياً» يقرّب تناولها، ويسهل الاستفادة منها، وييسر الانتفاع بها.

8 ـ نشر قوائم المخطوطات المهمة التي يقترح الاهتمام بها، أو إعادة تحقيقها ونشرها.

9 ـ نشر قوائم الكتب المطبوعة التي تحتاج إلى عناية مجددة، وتحقيق حديث.

10 ـ تدريس علم المخطوطات والارتقاء بدراسة علوم التحقيق والفهرسة والتصنيف.

11 ـ الاستفادة من القلة الباقية من علماء المخطوطات الذين توارثوا قواعد علم المخطوطات، وحفظوا ما وصل إليهم من ضوابطه ومصطلحاته وما تواتر من أسراره ورموزه. وهم لا يزيدون على عدد الأصابع في العالم يمكن أن يُعدّ منهم واحد أو اثنان في العراق يتمشى أحدهما في الكهولة، ويمضي الآخر فترة الشيخوخة. يضاف إليهم بضعة اشخاص في أفغانستان وباكستان والهند وعدد محدود جداً في أوروبا من المحترفين.

وهذه الأيام هي الفرصة الوحيدة، يخشى ـ إذا فاتت ـ أن يذهب هؤلاء ويذهب معهم ما عندهم من معرفة وتجارب وعلم.

12 ـ تأهيل الدارسين، واعداد المختصين في التحقيق، والأخذ بأيدي الجيل الصاعد الذي سوف يسد مسدنا، ويسلك طريقنا ويسير على منهاجنا وينحو ـ بعدنا ـ هذا النحو الصعب المستعصب.

إذا كان عدد المحققين قليلاً بالأمس، وإذا كان عددهم قليلاً اليوم. وإذا كان الذين يركضون وراءهم ليلحقوا بهم، ويحتلوا مكانهم، ويواصلوا السير بعدهم ـ من مقلديهم وتلاميذهم ـ لا يزيد عددهم على عدد أولئك السابقين، فإن عملية تحقيق التراث تحتاج إلى زمان طويل يجاوز المئات.

وإذا صح الرقم التقريبي الذي انتهت اليه بعض الدراسات الاحصائية للتراث العربي (بين 3 و 7 ملايين مخطوط) وإذا كان ما طبع منه ليس أكثر من عشر معشار ذلك الميراث الضخم الكبير، وإذا كان المشي وئيداً، والدرب طويلاً فإن تلك الأرقام

التي تبدو خيالية للزمن المحتاج إليه في إحياء التراث ـ هي أبعاد واقعية توجب مزيد الاهتمام بالمخطوط ، والاخلاص في خدمة التراث، واحتمال مشقة العمل، والسعي الحثيث.

ماذا ننشر من كتب التراث الآن؟

التراث كنز مخفي لا بد أن يكشف الغطاء عنه، وكله مما ينفع ويفيد في الدرس والتأسيس، والنقد والتمحيص، وقد سألتني بعض جهات النشر أن أضع أسساً للاختيار والانتخاب والتفضيل والترجيح.

أما أنا فأتمنى أن ينشر التراث كله، لكل نص فائدته وموضعه. وإذا كان ولا بد من الاختيار ـ فأقترح:

أولاً:

1 ـ أن تختار المخطوطات النادرة من الكتب الأصيلة والجامعة في الموضوعات المهمة والنافعة.

2 ـ أن تفضل الكتب غير المنشورة، ثم النصوص غير المحققة من الكتب الأساسية والمصادر الضرورية، ثم الكتب النافدة المحتاج إليها من المراجع والأصول.

3 ـ أن تقدم الأصول على المختصرات.

4 ـ أن تختار الكتب التي توضح اصالة الأمة، وتبرز الجانب المنير من حضارتها وتراثها وما يضيف إلى المعرفة من آثار علمائها، وما ينفع من مؤلفاتهم الشاملة الجامعة النافعة في العلم والأدب والأخلاق والدين.

ثانياً:

1 ـ أن ينشر من كتب اللغة ما يغني المعجم، وينفع في التعريب والبيان والشرح، وما يستفاد منه في التخريج والتأصيل.

2 ـ أن ينشر من الدواوين ما فيه بيان ناصع، وكلمة بالغة، ومعنى جميل، وموعظة حسنة، ورأى أصيل.

3 ـ أن ينشر من كتب الأدب عيون المؤلفات الغنية بالتراث الأصيل، والمعاني الحكيمة، والنصوص المنيرة، والشواهد البليغة، والخلق الكريم والقول النافع.

4 ـ أن ينشر من كتب العلوم ما ينفع من التعريب والتأصيل، ويفيد في تأريخ العلم، ويؤكد أولية الأمة في تأسيس المعارف والعلوم والفنون والصناعات والفكر.

5 ـ ينشر من كتب الفلسفة والحكمة ما يمجد العقل ويدعو إلى الفضل ويبين دور الأمة في الحكمة الإلهية ، وتأسيس التراث العقلي والعلمي.

6 ـ أن ينشر من كتب علوم الدين الأصيل المحكم المتقن المتين في علوم الحديث والفقة والأصول في إطار وحدة الكلمة وكلمة التوحيد.

7 ـ أن ينشر من كتب التراجم والطبقات المؤلفات الشاملة ومن كتب التراجم الخاصة ما يسد الفراغ، ويفيد في بناء التاريخ العام.

8 ـ أن تنشر الموسوعات ودوائر المعارف والمعاجم.

ثالثاً:

1 ـ تصدر الكتب بمقدمة في التعريف بالكتاب والمؤلف والموضوع.

2 ـ يعرف بالنسخ المعتمدة في التحقيق. ويزود الكتاب بصور أوراق منها توضح طرائق النساخ في الكتابة والرسم.

3 ـ يحقق النص بإخراجه مطابقاً لأصل المؤلف لفظاً ومعنى ويشار إلى اختلاف النسخ والنصوص.

4 ـ يضبط موضع الحاجة من النص، فيعجم المعجم، ويشكل المشكل.

5 ـ تخرج النقول والشواهد، ويحشى الكتاب بما يحتاج اليه من التعليقات والايضاحات والشروح.

6 ـ يذيل النص بمستدرك يتضمن تلخيص موضوعاته، واكمال مادته كلما مست الحاجة.

7 ـ ويذيل أيضاً بفهرس المصادر المعتمدة في التحقيق والتعليق.

8 ـ يزود كذلك بالفهارس المفصلة اللازمة التي تيسر مراجعته والانتفاع به.

من ضوابط التحقيق

عزمت إحدى جهات التراث على نشر كتاب هو من أكبر كتب الفقة وأوسعها ورأت اسناد تحقيقه إلى جماعة من المختصين والمحققين والباحثين. وقد اقترحت أنا الالتزام في تحقيق أمثاله من المدونات الكبار بالضوابط الآتية التي كنت وضعتها لتوحيد عملية التحقيق، في صيف سنة 1981 م.

1 ـ تصحيح الآيات بمراجعة الطبعات الصحيحة المعتمدة من القرآن الكريم وتوضع بين أقواس التنصيص المضاعفة الصغار. ويعنى رقم الآية واسم السورة بمراجعة كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. ويشار إليها في

الهامش هكذا: سورة البقرة/105 مثلاً.

2 ـ تصحيح الأحاديث بمراجعة الصحاح والسنن والمسانيد والأصول القديمة المعتبرة. وتوضع بين أقواس صغيرة كذلك. ويفتش عنها بمراجعة المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ومفتاح كنوار السنة، وسفينة البحار، وما يشابهها.

3 ـ تخريج الشواهد والنقول والروايات بمراجعة مصادرها الأصلية ومظانها المنصوص عليها، والكتب التي نقلت منها. وإلا اعتمدت أقدم الكتب إلى أزمان أصحابها وأقربها إلى قائليها ثم التي تليها..

4 ـ تخريج الآراء بمراجعة مظانها المعتبرة، ويراعي في نسبتها الأقدم فالأقدم ويعتمد في إسنادها إلى أصحابها الأهم فالأهم.

5 ـ شرح كلمات القرآن الكريم، وألفاظ الحديث الشريف بمراجعة التفاسير وكتب الغريب، ولا سيما النهاية والفائق واشباههما.

6 ـ شرح الكلمات الغريبة والألفاظ الصعبة بمراجعة كتب اللغة والمعاجم الكبار. ولا سيما الصحاح والقاموس واللسان والتاج والمصباح والمغرب وأمثالها.

7 ـ شرح الاصطلاحات بمراجعة الأمهات، وكتب التعريفات والمعاجم الموثقة.

8 ـ ترجمة الأعلام بما يعرف بهم أسماً ولقباً ونسباً ونسبة. وتحديد وفياتهم وعصورهم. وتعيين أشهر ما اختصوا به من معرفة، واعتماد أقدم الكتب وأقربها إلى عصر المترجم، والتعويل على المصادر المختصة بتراجم طبقات المترجمين ومذاهبهم وبلدانهم أولاً، ثم الكتب العامة الأخرى.

9 ـ والإشارة في الهامش إلى المصدر الذي قلت فيه مادة الترجمة، والمفضل أن يشار ـ أيضاً ـ إلى الإعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة وكتاب بروكلمان.

10 ـ التعريف بالبلدان والمواضيع بما يحددها ويوضح أهميتها ويبين موضعها ويعين اسمها القديم والحديث.

11 ـ التعريف بالكتب بما يعين مؤلفها ومادتها، وتحديد عصر تأليفها. والاشارة إلى طبعها ـ إذا كانت منشورة ـ وذكر مظان أهم نسخها إذا كانت مخطوطة. واعتماد الفهرست وكشف الظنون وذيوله والذريعة وما يشابهها، وفهارس المخطوطات.

12 ـ التعريف بالملل والنِّحَل والديانات والفرق والمذاهب والآراء الفقهية والكلامية والفلسفية بما يحدد مفاهيمها ويؤصل مبادئها.

وتعتمد كتبهم ومصادرهم بلا نقد ولا تجريح ولا ترجيح.

13 ـ تعريف الموازين والمكاييل والمقاييس والنقود بما يحدد مقاديرها حالياً أو ما يقرب ذلك.

14 ـ تحديد الأشياء بمصاديقها الحالية، وبما تسمى به الآن. وتوضيحها بما يرادف أسماءها القديمة من مواضعات واصطلاحات محدثة جديدة كلما أمكن.

15 ـ شرح الاصطلاحات المستعملة في المعاملات والعقود والاتفاقات بما يوضحها. وقرنها بالتعابير والاصطلاحات والتعاريف المستعملة في الحقوق والقوانين والمواصفات المدنية المعاصرة.

16 ـ شكل المشكل وضبط المشتبه، وتحريك ما يحتاج إلى الايضاح والتبيين بما يزيل اللبس.

17 ـ استعمال علامات الترقيم وهي الفواصل والنقاط والخطوط والأقواس والعضادات ونحوها، لتفصيل الجمل وتقسيم الكلام وفق المعاني والأغراض.

18 ـ ترجمة العلم «الشخص والمكان والكتاب..» في أول موضع في كل جزء.

19 ـ تذييل الكتاب بعد تمامه بما ييسر مادته، ويسهل مراجعته، ويقرب معلوماته من فهارس وكشافات.

20 ـ تصوير الكتاب بمقدمة في تحقيقه واخراجه ونشره، وتمهيد في دراسته والتعريف بمادته وأبوابه وفصوله، وترجمة المؤلف ومصادرها.

ينشر ذلك في أول الجزء الأول.

21 ـ اعتماد الأصول المخطوطة بحسب القدم والصحة والأهمية واستعمال الرموز التي تختار للاشارة إليها والدلالة عليها.

22 ـ اثبات النص الصحيح القديم في المتن، وذكر ما سواه في الهامش. وحصر الزيادات الضرورية اللازمة التي يقتضيها المعنى والتعبير والسياق بين قوسين، والاشارة إلى مصدرها في الهامش.

23 ـ ختم الاصرار بفهارس المصادر المعتمدة في التخريج والتعليق والشرح.